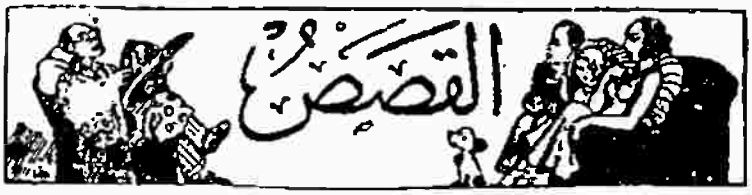

الحب ألم

لرينيه ميزروا

بقلم الأستاذ كمال رستم

(هذه قصة فى يوميات لرينيه ميزروا « René Maizeroy » ألخصها لك . . وأجل من التلخيص أن تقرأ القصة كما كتبها فإن التلخيص يفقدها الكثير من مزاياها التى تفردت بها . . ولكن هذا لا يمنع من أن أنقل إليك - بقدر الإمكان - المتعة التى وجدتها وأنا أطالعها . . وأن أجعلك تأسى كما أسيت على العاشق « روبيردى بلينفى » !)

* * *

« روبير دى بلينفى » فتى من سراة باريس قدم « نابلى » على ظهر اليخت « البجعة البيضاء » . . وقد صادف مقدمه احتفال المدينة بذكرى استجابة القديسة « سانتا ماريادىل كارمن » ضراعات القوم بأن بقى المدينة شر الأمطار ! .

شهد الفتى الاحتفال . . وكانت تصحبه « مس عجلى » و« البرنسيس داسبرامونت » . . وإذ يخلو الفتى إلى هذه الأخيرة يسألها قائلا :

— هل تأذن لى سيدتى بأن أسأل عمن عساها تكون هذه الفتاة اللطيفة التى كانت تتأمل بسخرية ألبوم « البجعة البيضاء » ؟

وتهز البرنسيس داسبرامونت رأسها بسخرية قائلة :

— إنك يا عزيزى بلينفى سابع شخص ألقى على هذا السؤال . . وليس يدهشنى هذا ما دامت ابنة خالتى « فوستين » فتاة سابية الحسن . . آسرة الجمال ! .

— فوستين . لكم يجلب اسمها السعادة ! .

ومع هذا فإن السعادة لم تقع للطفلة البائسة على صفة . . فقد انتهت حياة والدها « المركيز دى تيفيرون » ذات ليلة بالقتل على طريق « بوزول » وما لبثت زوجه أن لحقت به جزعا عليه وأسى ! .

— ومن الذى كفلها بعد وفاة والديها ؟ .

— كفلتها خالتها « دوقة دى ستابيا » التى تدين لها فوستين بابتسامتها الجميلة التى أسرتك !

.. وتقترب منهما فتاتان فيزداد وجيب قلب بلينفى إذ تقدمه البرنسيس داسبرامونت إلى إحداهما قائلة :

— فوستين ! هذا هو السيد روبير دى بلينفى . . وهو يود أن يتحدث إليك ...

: وتضطرب فوستين ... ويتضرج وجهها فيقول بلينفى :

— هل جئتك متأخرا يا آنستى ؟

— على النقيض يا سيدى . . فقد كنا مس جراس : وأنا منشغلتين بتحليل كتابتك على الألبوم !

قالت مس عجلى :

— صحيح . . وقد جاء التحليل فى صالحك !

قالت فوستين :

— وما كادت صديقتى تطالعنى بأنك موسيقى موهوب . . وأنك لا تبارى فى الرقص حتى نازعتنى النفس إلى التعرف بك !

طيبا الأستاذ حمدى الحسينى بعنوان « ثورة فى الجحيم » تكلم فيه بإيجاز عن الشاعر جميل صدقى الزهاوى وذكر فيما ذكر دواوينه الشعرية وحددها بخمسة دواوين آخرها ديوان الأوشال، والواقع أنها ستة دواوين آخرها ديوان التمالة وقد طبع بعد وفاته فى مطبعة النفيض ببغداد عام ١٩٣٩ بمساعدة أرملة الشاعر. ومما يجدر ذكره أن معظم قصائد هذا الديوان كان نشرها صاحبها فى مجلة الرسالة الغراء . ولذلك اقتضى التنبيه .

كلية الحقوق - بغداد — عبد الحميد الرشودى

— مس تمبلى هى اللطف بعينه . وإنى لأشكرها على صنيعها هذا الجميل !

— على أننى موقنة بأنها لم تبالغ فى وصف مواهبك ... أما عن نفسى فإنى أخشى أن أبدو مبتدئة فى الرقص !

وتواصل الكلام وقد جرت على شفتيها ابتسامة رقيقة فتقول:

— أيضايقك أن تعطينى هذا الدرس الصغير !

.. ويدلفان إلى صالون « البجعة البيضاء » ويلبيان نداء الفالس ويهمس بلينق قائلا :

— أتذكرين يا آنستى مثلنا السائر ... « كما يأتى الحب يمضى ؟ »

— شد ما أنت متشائم يا صديقى !

وتسمى أصابعها لتضغط على أصابعه وتهمس :

— أود أن أصنع لك هذه المعجزة !

.. ولكن الفتى يقف فجأة عن الرقص ... إذ يشعر كما لو كانت شوكة حادة استقرت فى عقبه الأيسر ... ويفيض الدم من وجهه ... ويستغرق الألم كيانه كله ... ويشله تماما عن الحركة وتصيح فوستين وقد أخذتها اللهفة على الفتى :

— رباه .. ماذا دهاك ؟

— ليس سوى خور .. خطوة خاطئة !

استند إلى ذراعى ودعنا نخرج من هنا .. فإن الهواء خليق بأن ينعشك ..

.. وإذ يعود الفتى إلى حالته الطبيعية يقول لنفسه :

— كم كان سخيفاً أن أموت .. وأن أخلف ورائى هذا الهناء كله !

وتقبل « مس تمبلى » و« البرنسيس داسبرامونت » يصحبهما طبيب هو الأستاذ « مورياك »

* * *

.. وتطرى عيادة الدكتور « دينيز مورياك » الأستاذ بكلية الطب للفتى . ولكن الأمر يبدو له غامضاً كالسر .. وهو عاجز تماما عن تشخيص مرض بلينق أو تفسير الأزمة التى انتابته !. ويتحدث طويلاً إلى الفتى عن تلك الآلة المعقدة المسماة « بالجسد الإنسانى » إلى أن يقول :

— أمن الممكن أن يحدث اضطراب عصبى مروع نتيجة حركة فصلت برهة شريان القدم .. أو الشظى القصير الجانبى بينما كنت تراقص الآنسة دى تيفيرون ؟ .. لقد استطلعت آراء بعض الزملاء . فكان إجماعنا على أنه ينبغى لك أن تأخذ حذرك من الآن !

— . أن تتنبه إلى هذا الإنذار ! أكرر لك أنه ليس طبيعيا أن يتعرض شاب شديد الأسر مثلك برىء من العيوب الجسدية لمدة خمس دقائق لموت محقق ؛ وأن يشعر برعدة الموت الروعة تسرى فى عروقه ! . ثم فجأة يتوقف هذا العذاب .. كما لو كان دعابة سخيفة

وإذ يخلو الفتى إلى نفسه يقفز إلى رأسه هذا السؤال : أصحيح أننى فى خطر . وأن هذا الطبيب الكريه إنما قرر الحقيقة ! ...

* * *

.. تحت « البجعة البيضاء » يتحرك مبتعداً عن الميناء .. ويريد بلينق أن يستطلع رأى « فوستين » عما إذا كانت تبادله الحب وترغب فى بقائه إلى جوارها حتى يكللا هذا الحب بالزواج فيمضى إليها ويطرح عليها السؤال التالى :

— فوستين ! أينبغى أن أرحل أم أبقى ؟

وتجيبه فى صوتها الحبيب بكلمة واحدة :

— إبق !

وتسلم شفتيه جبينها الوضىء . وعينيها النجلاوين .. وتستطرد هامسة :

— إننى أحبك أكثر مما تحبنى . وسأغدو زوجتك .. وإلا فإننى لن أمنح نفسى بعدك لغير الله

ويتم قرانهما

وها هو ذا بلينق فى منزل الزوجية يعزف إحدى سمفونيات بيتهوفن ، وفوستين زوجه فى حال من خدر الحس وسكرة النفس — جالسة على حافة النافذة تصغى إلى النغم الحالم الصادر من البيان .. ويهتف بلينق من أعماق نفسه قائلا :

— أتحبيننى .. أتحبيننى يا فوستين ؟ .

— نعم .. أحبك .. أحبك وما عيشى إلا لحبك .. إننى

سعيدة إلى حد يخيل إلى أنني أحلم !

.. وفجأة يتوقف بلينفى عن العزف إذ تعود إليه نوبة المرض وتهتف فوستين قائلة :

— أرجوك ... لا تكف عن الإيقاع ... ما أعذب موسيقى يتهوفن فى سكينة الليل !

* * *

تتكرر نوبات المرض .. ويغدو بلينفى قميد عربة تجرها ممرضة بين دموع فوستين التى يشير عليها الأطباء بأن ترد عنها أحزانها إشفاقا على صحتها ، وأن تنطلق إلى الحياة وتعب من معينهـــا الصافى لا من هذا الكدر الذى يصوح جمالها ويذوى جسدها !

وينقضى شهران يجتر فيهما بلينفى الألم ، ويبكى فيها سعادته الغاربة إذ يتأمل حاله ؛ ولكنه يذكر رجلا مقعدا يدعى « كونت دوجتريلاك » يبدو ، أبدا ضاحك السن ، مرح الفؤاد .. ولكنه سرعان ما يلمس الفارق بينه وبينه ؛ إن الكونت رجل أعزب .. أما هو فقد داف إلى حياة الحب وربط إلى عجلته .. فوستين !.

ويقع بلينفى فريسة لحلم يثبته هكذا فى يومياته :

« وقع لى هذه الليلة كابوس مخيف كان مسرحه حديقتنا فى (بوزيليب) .. ورحت فى الحلم أنتحب كطفل .. لم تكن الأشجار إلا هياكل عظمية شائهة تحكى فروعها الجرداء المشانق !

وكانت ثمة وردة وحيدة — لست أدرى بأية معجزة تفادت الكارثة — كانت تخفق بلطف متلألئة .. نصف متفتحة كأنها شفتان تتأهبان لتلقى حلاوة القبلة الأولى !

.. وكان لها شذا فوستين !

وراح ضوءها ينتشر تدريجاً على بقعة الخراب .. مهددة من أثر هـذا الحزن ؛ وكلما شرعت أستروح عطرها السحرى .. وهممت بأن أقتطفها وأحملها بعيداً عن هـذا اليباب .. شمرت بالوردة المعبودة تمد جذورها تشبثاً بالأرض . إذ ذاك دلف إلى الحديقة فتى غض الإهاب ، رشيق القوام ، متين البنيان حلو السمات .. واجتاز الممشى وعيناه طافتان بالزهرة ، ويداه ممدودتان كما لو كانتا تسميان إلى يدى حبيبة! .. وتفتحت الزهرة عن كمامها ، وتلألأت ، وخفقت على ساقها الواهن .. وقد نفثت عطرا نفاذا أصابنى منه دوار !

وأردت أن أقبض على الدخيل وأن أسد عليه الطريق وأرده عن أن يدنس متاعى وأن يسرق ملكى .. كنزى !

.. وبذلت مجهودا فوق طاقة البشر لأزيح عن ساقى هذه الصخرة التى أثقلتهما .. وطلبت الغوث ، وضرعت إلى الله وتوعدت .. وسببت .. ودعوت غريمى للقتال واستشطت غضبا ، وقاتا .. ولكنه وقد أصم أذنيه عن ضراعاتى .. مستخفا بإهانتى ، مضى قدما إلى هدفه كأنه مسوق بقوة سحرية ! وإذ بلغ الوردة جثا أمامها وهمس بصوت خفيض : فوستين ! إذ ذاك رأيت الوردة العجيبة ، الوردة الوحيدة تميل على راحة الفتى وتهوى متناثرة الأوراق بين أنامله ! وسرعان ما ضرب فوق ومن حولى نطاق غامض من الظلمات وثارت فى وجهى عاصفة من الرمال ، وأعقب ذلك سكون الأبد .. والعدم .

* * *

وهذه نازلة أخرى تنزل ببلينفى : إن السيد فيليب ستراودون الذى عهد إليه بكل ثروته .. بدد الثروة وأصبح بلينفى وكل ما يملكه بعض أراض فى « بيريجور » وفندق فى « نويل » .. ويلج الألم بالفتى إذ يذكر أنه عاجز عن العمل والكفاح .. فلو أنه سليم معافى لشق طريقه فى الحيـــاة ، ولمضى إلى الأرجنتين أو إلى كندا ... وحسبه فوستين سنداً ومعيناً ... فوستين ... كيف يمكن أن تألف فوستين حياة الفقر والفاقة ؟

* * *

ويعوده الدكتور « دينيز موريان » فيسأله بلينفى أن يحدثه بصراحة عن مرضه فيقول له :

— إنك مصاب بمرض من أخطر الأمراض ... مرض لم يأت ذكره فى كتاب ... ولم يعرف بعد فى مستشفى ... لا فى أوربا ولا فى آسيا ... ومن شأن هذا المرض أن يحيل الأنسجة العضلية تدريجاً إلى عظام ، وهو يفضى حتما إلى الموت

— الموت ؟ بعد أجل قصير أو طويل ؟

— إنى أجهل ذلك

ولكن الدكتور دينيز موريان الذى تطمح نفســـه إلى

ا كتشاف هو هذا الرمز الجديد لا ينصرف من عنده قبل أن يظفر منه باتفاق يضع فيه بلينق جسده تحت تصرفه فى مقابل أن ينقذه الدكتور دينيز مبلغ ٥٠٠٠٠ فرنك سنويا إلى حين وفاته !

ويتأمل بلينق فوستين فيهره تغيرها الفاجئ ... ويثبت فى مذكراته حديث نفسه فيقول :

ـ كم تبدو فوستين سعيدة ! وكم تتحاشى لقائى وتهمل شأنى ... إننى لا أقوى على أن أصعد النظر إلى عينيها !

لقد دفعتها إلى السرور وإلى الحياة ... مستعيناً فى ذلك بإرادتى وقوتى ورقتى !

وحملتها العاصفة

فإلى شهر مضى كان عهدى بها تقص على ما عملته وماعلمته، أما الآن فقد غدت كلماتها عابرة مقتضبة حتى لتثلج القلب . إنها أصبحت تنهى حديثها على وجه السرعة ... ولاتقول لى إلا ما تريد أن تقوله حسب !

إن فكرها شارد فى مكان آخر

ويشتد به اليأس فيقول :

« إنى لأتصور القوم الآن وهم يعتبرونها أرملة ... وأنهم لم يعودوا بعد يحدثونها عنى ... كأننى عدمت النفس ... وفارقت الحياة . من الذى تحبه ؟ من سلبنى قلبها ؟ وأى شؤم طالعنى به وجه هذا الحلم ؟ أو ما كان ينبغى أن تكون أفضل من سولها، وأن تضع فى اعتبارها أننى أحبها إلى حد الهوس والجنون ... وأننى عاجز عن حماية نفسى بينما أن فريسى فى حبها سالم من مثل النكبة التى حلت بى ... وأن تكون فوستين من رقة القلب وشفافية الشعور بحيث تدعنى أموت فى سلام »

. . ولكن حياة بلينق لم تعرف السلام فكذلك ينبغى أن يكون مماته .

إنه يأمر الخادم بأن يذهب به إلى غرفة زوجه . . وثمة يجد رسالة لم تفرغ بعد فوستين من كتابتها إلى عشيقها

وتتراقص أمام عينيه هذه الكلمات :

. . إنك تتسبب لى يا عزيزى ألما لا ينقض عندما تتسخط هكذا ظلما على القدر ، أو لم تظفر بكامل حبى ؟ . ما قيمة بضعة أشهر من الانتظار بالقياس إلى حبيبين قضيا على نفسيهما العهد بأن يكون أحدهما للآخر . . ولا تزال أمامهما سنوات . . وسنوات . . من السعادة » .

أم تراك تعد ترددك إلى — هذا التردد الذى أسرنى — وقتا مضيعا ؟ .

. . ويتحامل بلينق النعس على نفسه ويخط هذه الكلمات فى أسفل الرسالة :

« وداعا يا فوستين . . وإنى لأصفح عنك . . ما دامت أوفر سعادة معه . »

إن يمينه كانت لا تزال قوية على استعمال النصل الذى أهدته إليه فوستين . . وهكذا سقط على الأرض مضرجا بدمائه، متأثرا بغدر المرأة التى طالما زعمت له أنها « إنما تعيش من أجله وأنها « لن تمنح نفسها بعده لأحد غير الله ! »

كمال رستم

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز، وتحليل مفصل، واختيار موفق، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنتى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد